

ثم يعرج بنا على القرية وينيح بنا عند دار العمدة وننزل من هذه الدار أحسن منزل، وإنني لشديدة الرغبة في أن أنفق الليل حيث أنا، وإن أختي لتشاركني في هذه الرغبة، ولكن خالنا قد أزمع المسير مع الليل ولم تراجعه أمنا ولم تمتنع عليه، ولم يستطع مضيفنا أن يثنيه عما اعتزم؟

وبينما كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا مما قُدم إلينا من طعام كان خالنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلم ببعض من كان يعرف في قرية مجاورة، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة، ويقبل الليل ويبسط ظلمته بسطاً، ونكاد نستئس من استئناف السفر ونكاد نطمئن إلى البقاء حتى يسفر الصبح.

ولكن هذا خالنا قد أقبل، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالدعاء إلى الرحيل، وها نحن أولاء نستجيب لندائه، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس، ولكن خالنا إذا عزم أمضى. وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الجمelan قد دفعا بنا دفْعاً إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسداً، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شيء وانقطعت الأصوات، إلا هذه التي تأتينا من بعيد بين حين وحين فتنبهنا، فإذا هي أصوات الكلاب تنبح في القرى البعيدة، وإلا هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التي تحيط بنا وتمتزج بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً، وهي أصوات الحشرات والضفادع المنبثة في الحقول وعلى شواطئ الأبنية.

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمين أو من شمال فننكره ونرتاع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء البوم، وربما ارتفع صوت خالنا ببعض غناء البدو فرجع ترجيعاً جميلاً مخيفاً معاً، ولكنه لا يتصل إلا قليلاً ثم ينقطع، ويمضي خالنا في حديثه مع أمنا، أو يغرق خالنا وتغرق أمنا في الصمت العميق، وأنا وأختي نسمع لهذا كله ونتحدث في شيء من الهمس الخائف الوجل كأنما نفرُّ من شيء نخافه أو نُقَدِّم على شيء نخشاه، ومن يدري، لعلنا كنا ننتظر ظهور الأشباح الحمراء، ونشفق من أن تترأى لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إليها أو نتحدث عنها؛ والجمelan يسعيان بنا سعيًا فيه إسرار ولكنه إسرار لا يكاد يحس، وكأنهما مثلنا يفران من بعض ما يكرهان فهما يُجَدَّان في السعي! وسكون الليل يثقل شيئاً فشيئاً، وظلمة الليل تزداد كثافة من حين إلى حين، ونفوسنا تريد أن تهيم في هذا السكون وتختلط بهذه الظلمة وتود لو احتواها النوم، ولكن أنى لها أن تهيم في سكون الليل وهي مضطربة، وأنى